الطبعة الثانية
2015م - 1436هـ

مغامرات شارلوك هولمز

The Red-Headed League

عصبة ذوي الشعر الأحمر

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سليمان حسون

أجيال الغد
سورية - دمشق - هاتف: 2256733 / 2262422 11 00963
ص.ب: 31453 - agyalalgadsyr@gmail.com
أشرف على التنفيذ الفني والطباعي دار الحافظ
daralhafez.net

2

مغامرات شارلوك هولمز

The Red-Headed League

عصبة ذوي الشعر الأحمر

تأليف: آرثر كونان دويل

نشرت للمرة الأولى في مجلة ستراند

آب 1891

ترجمة: سليمان حسون

مراجعة: لينا حجازي

مُقدِّمَةٌ

تفوَّقت شخصية شارلوك هولمز على شهرة مخترعها سير آرثر كونان دويل وتجاوزت شهرتها ليس فقط لندن والجزيرة البريطانية، بل بلغت أقاصي العالم مع ترجمة أعمال ومغامرات هولمز إلى كل لغات العالم تقريباً. فلم يعد أحد من الشَّبان أو الشَّابات إلا ويعرف من هو ذلك المحقق اللامع الذّكاء الذي يعير انتباهاً إلى أدق التَّفاصيل عندما يضع قضية ما تحت مجهر فحصه الدَّقيق. ومن منا لا يذكر براعة هولمز في فك طلاسم أعقد الألغاز وأشدها غموضاً بطريقة تحليله المنطقية الشَّهيرة. تعتبر شخصية هولمز غير الحقيقية طبعاً واحدةً من أكثر الشَّخصيات تأثيراً في القراء خلال القرن العشرين نظراً لمخاطبتها عناصر أساسية في شخصية أي إنسان لتحفيز قدراته

العقليـة، وتفكـيره مـن أجـل الوصـول إلى حـل كل لغـز اشـتركت فيـه. وكأنَّهـا (أي شـخصية هولمـز) كانـت تحث القـارئ دومـاً وتحفـزه للوصـول إلى الحقيقـة، أو حـل اللّغـز المطروح بشـكلٍ يجعل القـارئ يضطر لاسـتخدام كل ملكاته الفكريَّـة والعقليـة للوصـول مـع هولمز وواطسـون إلى حقيقة الأمـر، أو حتَّى أن يسـبقهما في التَّوصل للحقيقـة. الطَّريف في شـخصية هولمز أنَّهـا وعـلى الرغم مـن أنَّها تقـدِّم لنا شـخصاً مـن لنـدن في نهايـة القـرن التَّاسـع عـشر إلا أنَّهـا مـن خـلال طريقـة تعاملهـا مـع مـا حولهـا ومـن حولهـا تبـدو شـخصية أكثـر معـاصرة وكأنَّ كونـان دويـل نجـح بتحويلهـا إلى شخصية خارج إطار زمان محدد.

الأهـم مـن شـخصية هولمـز التـي تتسـيَّد كل قصـص كونـان دويل هي شـخصيَّة كاتبهـا التي تشي بشـخص عاش حياتـه كتجربـةٍ عظيمـةٍ تمكَّـن إلى أقصى حـد في تصويرها من خـلال شـخصية هولمـز، أحيانـاً وشـخصية د. واطسـون بصـورةٍ أكـبر وأكثر جـلاء. كما تمكّـن الفنان سـيدني باجيت مـن ابتـداع صـورة نمطيـة محـدَّدة ومشـوِّقة للسـيد هولمـز في

أذهاننـا، مـع مواكبـة قصـص كونان دويـل برسـومات جميلة جعلـت صـورة هولمـز المرتـدي لقبعتـه المميـزة. وغليونـه الجميل، صورة لا تمحى من أذهاننا.

آرثر كونان دويل

مؤلف شخصيَّة «شارلوك هولمز»

ولـد الطبيـب والروائـي البريطـاني السير آرثـر كونـان دويل في أدنبرة باسـكتلندا سـنة 1859، واشتهرت الشَّخصية التـي ابتدعهـا «شـارلوك هولمـز» لرجـل التَّحـري الذَّكـي القـادر على فـك ألغاز الجرائـم، معتمداً على امكاناتـه الذِّهنية وقـوة الملاحظـة، واتبـاع طريقـة الملاحظـة والتَّحليـل والاسـتنتاج بالاعتـماد عـلى العلـم والمنطـق، هذه الشَّـخصية التي أصبحت أكثر شهرة من مبتدعها.

وقـد مُثلـت العديـد مـن رواياتـه وقصصـه، وتحوَّلت إلى أفـلام سـينمائية وأفـلام كارتونية. وقد هجر السـير آرثر دويل مهنـة الطّب بعد أن مارسـها ثماني سـنوات، واتَّجـه إلى الأدب، واسـتطاع أن يبـدع فيه. بـدأ حياته الأدبية سـنة 1887 بكتابة القصـص القصـيرة للمجـلات بهـدف زيـادة دخلـه. يقـول

النَّاقد كريستوفر مورلي عن شارلوك هولمز: لم يحدث أبداً أن نالت شخصيَّة روائيَّة هذا الحظ من القدرة على امتاع القرَّاء والالتصاق بهم بمثل ما نالت شخصية شارلوك هولمز. فالسير آرثر دويل بعد أن مارس مهنة الطّب في عيادته التي لم يكن يزورها إلا النُّزر اليسير من المرضى، كان يجد أوقاتاً كبيرة من الفراغ، شغلها بكتابة القصص القصيرة، والتي لم تنل حظاً من النَّجاح في البداية.

إلا أنَّه وبعد نشر روايته الأولى عن شارلوك هولمز سنة 1887 أخذ نجمه في الصّعود. وبلغت مجموع القصص والرِّوايات التي كتبها السير آرثر دويل وظهرت فيها شخصية شارلوك هولمز حوالي 60 عملاً، جُلَّها من القصص القصيرة ، حتَّى أصبح السير آرثر دويل من أكثر كتَّاب القصَّة القصيرة دخلاً في عصره.

ونظراً لجهوده في دعم الحكومة البريطانية في حرب البوير «1899 – 1902» رقِّيَ إلى رتبة فارس سنة 1902.

شارلوك هولمز

شخصيَّة خياليَّة لمحقِّق من أواخر القرن التَّاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ابتكرها الكاتب والطَّبيب الاسكتلندي سير آرثر كونان دويل، ظهرت الشَّخصية لأول مرة في 1887، واشتهرت الشَّخصية بمهارتها الشَّديدة في استخدام المنطق والمراقبة لحل القضايا، وقد يكون هو أشهر محقِّق خيالي في العالم، وهو بالفعل أحد أكثر الشَّخصيَّات الأدبيَّة المعروفة بشكلٍ عالمي.

كتب كونان دويل أربع روايات، وستاً وخمسين قصَّة قصيرة من بطولة هولمز، رويت جميعها من قبل صديقه الحميم وكاتب سيرته دكتور جون هـ. واطسون، باستثناء قصَّتين رواهما هولمز بنفسه، واثنتين رويتا بضمير الغائب.

وصف شارلوك هولمز نفسه بأنَّه محقِّقٌ استشاري خبير، يتم استدعاؤه لحل القضايا التي يثبُت أنَّها صعبة الحل جدًّاً على المحققين الرَّسميين (النَّمطيين). وتُخبر القصص أنَّه كان قادراً في العديد من المناسبات على حل القضايا بدون مُغادرة بيته، دون أن تهتم القصص بتقديم الكثير من

هـذه القضايـا الصَّغـيرة، مُركِـزَةً عـلى القضايـا المشـوِّقة التي تتطلَّـب منـه القيام بتحريك سـاقيه فعـلاً. يتخصَّص هولمز في حـل القضايـا الغريبـة مسـتخدماً قـواه الاسـتثنائية في المراقبة والتَّحليل المنطقي.

يُصوَّر هولمز بشـكلٍ دائم في الوسـائط الإعلاميـة المختلفة مرتديـاً قبعـة صائد الأيائـل وعباءته، مُدخناً غليوناً، ومُمسـكاً بعدسـةٍ مكـبرة. ويوصـف هولـمز بأنَّـه سـيدٌ إنجليـزي مـن الطِّـراز الفيكتـوري، طويـلٌ ورشـيقٌ، لـه عينـان حادَّتـان دقيقتـان، وأنـف معقـوف. بالرُّغـم مـن قامتـه النَّحيلـة فـإنَّ قدراتـه البدنيَّـة عاليـة. هـو ملاكـمٌ ومبـارزٌ ماهرٌ، وعـادة ما يتغلَّـب عـلى خصومـه في المـرات القليلـة نسـبيَّاً التـي اضطر فيهـا للاشـتباك جسـديَّاً. وفي مغامـرة إكليـل العقيـق يقـول هولـمز أنَّـه: (يمتلك قوة اسـتثنائية في أصابعه). أمَّـا في مغامرة المنـزل الفـارغ فيذكـر أنَّـه: (يمتلـك القليل مـن المعرفة حول المصارعـة اليابانيـة). كان يعيـش هولـمز في لندن شـارع بيكر عنوان 221 B.

في أوَّل قصصـه، دراسـة بالقرمـزي، قُدِمَـت بعـض

المعلومـات عن خلفيـة هولمـز. قُـدِم في 4 آذار 1881 على أنَّه طالـب كيميـاء مسـتقل، لـه مجموعةٌ واسـعةٌ مـن الاهتمامات الجانبيـة، وتقريبـاً؛ فـإنَّ كل هـذه الاهتمامات تصـب في مجرى مسـاعدته ليصبـح خارقـاً في حـل الجرائم. في مغامـرة أخرى مبكِّـرة بعنـوان مغامـرة غلوريـا سـكوت، تتضـح الأسـباب التـي دعت هولمـز إلى العمـل كمحقق خـاص؛ امتـداح والد زميله في الكلية الشَّديد لمواهبه وقدراته الاستنتاجيَّة.

في مغامـرة المترجـم الإغريقـي، يقـول هولمـز: أنَّ جدَّتـه كانت شـقيقة الرَّسـام الفرنسي فيرنو. وفي دراسـة بالقرمزي، يضع دكتور واطسون تقييماً لمهارات شارلوك:

ويعتـبر شـارلوك هولمـز أيضـاً مُحلِّـل شـفرات كـفء، ويقـول لواطسـون: أنا متآلف مـع كل أشـكال الكتابة السريَّة بشـكل جيـد، وأنـا نفـسي مؤلـف كتـاب ثانـوي حـول الموضـوع، حللـت فيـه مائـة وسـتين شـفرة منفصلـة. حُلت إحـدى الشَّـفرات في مغامـرة الرِّجـال الرَّاقصـين، التـي استخدمت سلسلة من الأشكال الأوليَّة.

كـما أظهر هولمـز نفسـه كأسـتاذ في التَّنكر بعـد أن تنكر في

أشـكال مختلفـة خـلال مغامـرات: بحـار (علامـة الأربعـة) وسـائس خيـل، ورجـل دين (فضيحـة في بوهيميـا)، ومدمن أفيـون (الرَّجل ذو الشـفة المقلوبـة)، ومتبطل عـادي (مغامرة إكليـل العقيـق)، وكاهـن إيطـالي عجـوز (مغامـرة المشـكلة الأخـيرة)، وبائـع كتـب (مغامـرة البيـت الفـارغ)، وعامـل تمديـدات صحيَّـة أو سـبَّاك (مغامـرة تشـارلز أغسـطس ميلفيرتـون)، ورجـل محتـضر (مغامـرة المحقِّـق المحتـضر)، وأخيراً متسول كلب آل باسكرفيل.

ويمكـن اعتبـار هولـمز رائـداً في علـم الأدلَّـة الجنائيَّـة الحديـث لاسـتخدامه هذا العلـم في قضاياه، مثـل: تعرفه على الفروقـات بـين أنـواع الآلات الكاتبـة لفضـح الاحتيـال (قضيـة هويـة). وتوصلـه إلى جريمـة باكتشـافه قطعتـين من البقايـا البشريـة (مغامرة صنـدوق الورق). وملاحظتـه لبقايا بـارود عـلى الضحيـة (مغامـرة ميـدان ريغـاتي). وملاحظتـه نـوع الرَّصـاص المسـتخدَم في جريمتـين (مغامـرة البيـت الفـارغ). واسـتخدامه بصمـة الأصابـع لتحرير رجـل بريء (مغامرة باني نورwood).

عاش شارلوك هولمز تاريخياً، في 221 B شارع بيكر، لندن منذ 1881، حيث أمضى العديد من سنواته المهنية مع صديقه الحميم دكتور واطسون، الذي تشارك الشقة معه قبل زواج واطسون في 1890. وكانت تشرف على صيانة الشقة والاهتمام بها السيدة مارثا هدسون، مالكة البناية. وقد وصف دويل الحي الذي يعيشان فيه بدقة، حتَّى أنَّ الكثيرين من القرَّاء زاروا شارع بيكر للبحث عن العنوان الخيالي.

ومن أبرز الشَّخصيات التي ظهرت في حياة شارلوك هولمز:

د. واطسون

واطسون؛ صديق هولمز الحميم، وكاتب سيرته الذَّاتيَّة، كما أنَّه يقوم بتسجيل معظم قضايا هولمز. وفي القصص الأخيرة ينتقد هولمز واطسون دائماً لأنَّه يروي القصص بشكلٍ مثيرٍ، مبتعداً عن الطَّريقة الموضوعية والمفصَّلة للتقارير التي تركز على ما يُسميه هولمز (العلم المحض). واطسون، بالمقابل، له سمعة مبررة بعض الشَّيء

كرجل يميل إلى النّساء، يتكلّم بحب عن بعض النِّساء، وفي بعض القصص الطَّويلة كثيراً ما يركِّز على جمال امرأة معيَّنة، وفي النِّهاية فإنَّه يتزوَّج واحدة بالفعل. ماري مورستان من رواية علامة الأربعة.

جيمس موريارتي

«عدو شارلوك هولمز الأزلي»

البروفيسور جيمس موريارتي (نابليون الجريمة)، هو في الأساس معلِّم الرياضيات الخصوصي لهولمز، كما أشير لذلك أيضاً في عمل بارينغ-غولد. وهو المشكلة الأساسية في العديد من قضايا شارلوك هولمز.

سقط مع هولمز أثناء صراعهما في شلالات راينباخ. ونوى كونان دويل أن تكون (المشكلة النِّهائية) التي حدث فيها ذلك، هي آخر قصة يكتبها عن هولمز، لكنَّ الرَّسائل الكثيرة التي استلمها مطالبةً بعودة هولمز أقنعته بالاستمرار في كتابة القصص. وفي (مغامرة المنزل الفارغ) أخبر كونان دويل أنَّ موريارتي وحده من سقط في الشَّلال، وأنَّ هولمز جعل العالم يعتقد بأنَّه مات أيضاً ليراوغ أتباع موريارتي.

آيرين أدلر

المـرأة الوحيـدة التـي أبـدى هولمـز اهتمامـاً بهـا. وتبعـاً لما قالـه واطسـون، فـإنَّ هولمـز كان يشـير إليهـا دائـماً باعتبارها (المـرأة). بالرُّغـم مـن أنَّ هولمـز نفسـه لم يسـتخدم هـذا المصطلـح، علـى أنَّه ذكر اسـمها الفعـلي عدَّة مـرات في قضايا أخـرى. وهي أيضـاً واحدة من النِّسـاء القلائـل اللائي ذُكرن في قصـص شـارلوك هولمـز، بالرُّغم مـن أنَّها ظهـرت فقط في قصـة فضيحـة في بوهيميـا، إلا أنَّهـا غالبـاً مـا اعتـبرت المـرأة الوحيـدة التـي كـسرت تحفُّـظ هولمـز. وهـي المـرأة الوحيـدة التي هزمت هولمز في لغز.

مايكروفت هولمز

الشَّـقيق الأكـبر لهولمـز، الذي يمتلـك قوى تحليليـة تفوق حتَّـى تلـك التـي يتمتَّـع بهـا شـقيقه الأصغـر. وبالرُّغـم مـن ذلـك فـإنَّ مايكروفـت غـير قـادر عـلى أداء عمل تحرٍ مشـابه لعمـل شـارلوك، لأنَّـه لا ينـوي بـذل أي جهـد جسـدي ضروري لحل القضايا.

ليس لديه طموح أو طاقة، ولن يتزحزح عن هذا حتَّى ليثبت حلوله الخاصَّة، ويُفضِل أن يُعتبر حله خاطئاً على أن يتحمَّل عناء إثبات صحة كلامه. كثيراً ما أخذت مُعضلاتي إليه، وحصلت منه على شروحات ثبت صحتها فيما بعد، غير أنَّه كان دائماً غير قادر على حل النّقاط العمليَّة.

عصبة ذوي الشعر الأحمر

في أحد أيام الخريف الباردة العام الماضي، قصدتُ منزل صديقي شارلوك هولمز لأجده منهمكاً بحديثٍ مع رجلٍ مُسنٍّ جدّاً يُميِّزه شعرٌ أحمرٌ ناري يُزيِّنُ رأسه.

اعتذرتُ لقدومي دون موعد، ولأنّي أقاطع حديثهما وكنت أهمّ بالمغادرة حين نهض هولمز وألحَّ عليَّ أن أبقى في الغرفة، مغلقاً الباب لحسم الموضوع.

وقال: لقد أتيتَ في الوقت المناسب يا عزيزي واطسون، ثمّ توجّه بالحديث إلى العجوز قائلاً: إنّ هذا يا سيد ويلسون مساعدي وشريكي في العديد من القضايا التي تمّ حلّها بنجاح، ولا يوجد لدي أدنى شكّ بأنّه سيُقدِّم لنا الكثير من المساعدة القيِّمة فيما يتعلّق بالقضية التي تُحدِّثني بأمرها أيضاً.

نهض الرَّجُل المُسنُّ عن كُرسيِّهِ وانحنى أمامي باحترام تحيَّةً منه لي، فيما تعلو وجهه نظرةَ الحيرة والتّساؤل.

قال هولمز: إنّي متأكِّد وأعرف تماماً يا عزيزي واطسون كم أنت مولعٌ بالقضايا الغريبة مثلي.

أجبتُ: نعم، بالتّأكيد، لطالما كنتُ مهتماً بالقضايا التي تتولّى أنتَ العمل عليها.

- لكن يجب أن تكونَ مقتنعاً بوجهة نظري أولاً، وإلا يجب أن أحاول جلب الدّليل تلو الدّليل لأتغلّب على وجهة نظركَ وتقر أنّي على حق. حسناً، إليكَ القضية.

لقد اتّصل بي السّيد جابيز ويلسون هذا الصّباح ليخبرني عمّا وصفه بالأمر المذهل، فأصغيتُ إليه، كالعادة، لبعض الوقت وسمعت قصته.

لا بد أنّكَ سمعتني أقول فيما مضى أنّ أغرب الأشياء وأكثرها تفرُّداً غالباً ما تتعلّق بالجرائم الصَّغيرة أكثر مما تتعلّق بالجرائم الكبيرة، وأحياناً حيث يكون هناك مجال للشك في وقوع الجريمة فعلاً، أي قبل الجريمة سواء كبيرة أو صغيرة.



واستناداً إلى ما سمعته، لا يمكنني أن أجزم الآن ما إذا كان الأمر يتعلّق بجريمة أم لا! إلا أنّ مُجريات الأحداث تبشِّر بواحدةٍ من أغرب القضايا التي تعاملتُ معها حتّى الآن.

هل يمكنك إعادة إخبارنا بالقصة يا سيد ويلسون لو سمحت؟

اعذرني إن طلبت منك إعادة رواية القصة، ليس لأنّ صديقي واطسون لم يسمع بدايتها فقط، بل لأنّ غرابة القصة تدفعني إلى التّمحيص في أدق التّفاصيل التي تقولها لنا.

أخذ عميلنا نفساً عميقاً معبِّراً عن أهميّته بالنسبة لنا، ثم أخرج من جيب معطفه جريدةً متّسخةً ومجعّدة.

نظر إلى قسم الإعلانات مُنحنياً برأسه فوق الجريدة المفتوحة على ركبتيه.

وفيما كنت أراقبه، ورغم أنّي لم أزح نظري عنه، لم أجد فيه ما يلفت الانتباه على أنّه متميِّزٌ باستثناء لون شعره الأحمر وهيئته الحزينة وتعبير عدم الرضا الواضح على قسمات وجهه.

استقام السيد جابيز ويلسون في جلسته، واصبع يده

مصوّبٌ إلى الصحيفة، فيما عيناه تركّزان على صديقي هولمز. وسأل: قل بالله عليك، كيف عرفتَ كل المعلومات التي تملكها حولي؟ كيف عرفتَ مثلاً أنّي كنتُ أزاول عملاً يدوياً؟ لأنّ هذا صحيح، فقد كنت أعمل نجاراً للسفن.

– من يديكَ يا عزيزي. فعضلاتُ ذراعك الأيمن أكبر وأقوى من الأيسر بكثير. وهذا يعني أنّك كنت تستخدمه دوماً بعملٍ يدويٍ مجهد ممّا جعل عضلاته أكبر.

– وماذا عن الصين؟

– من السَّمكة المنقوشة فوق معصمك الأيمن مباشرةً والتي لا تتوفّر إلا في الصين. فقد قمتُ بدراسةٍ صغيرةٍ حول العلامات المنقوشة في الوشم، وساهمتُ في أدبيات هذا الموضوع بنفسي. إضافةً لذلك، فإنّي عندما أرى عملةً معدنيّةً صينية تتدلّى من سلسلة ساعتك، يصبح الموضوع أكيداً.

ضحك السيد ويلسون بشدّة وقال: اعتقدتُ للوهلة الأولى أنّه ذكاءٌ منك أن تُخمِّن، لكن الأمر ليس كذلك كما أرى.



أجاب هولمز بهدوء: أنت تجعلني أندم لأني شرحتُ لك كيف اكتشفتُ الأمر.

ألم تجد الإعلان يا سيِّد ويلسون بعد؟

أجاب ويلسون واضعاً إصبعه الأحمر الثّمين عند منتصف العمود في صفحة الجريدة: ها هو، هكذا بدأ كل شيء.

اقرأه بنفسك يا سيدي...

تناولت الجريدة وبدأتُ أقرأ:

إلى عصبة ذوي الرّأس الأحمر...

نزولاً عند رغبة المرحوم اللّبناني الأصل إسحاق هوبكنز من ولاية بنسلفانيا، الولايات المتحدة الأمريكية، تمّ فتح باب التّرشيح لضم عضو جديد إلى العصبة مقابل أجر قدره أربعة باوند أو جنيه في الأسبوع، مقابل تأدية بعض خدمات اسمية بحتة.

يمكن لكل الرِّجال الذين يحملون شعراً أحمراً على رؤوسهم ويكونون سليمي العقل والجسد والذين يبلغون من العمر 21 عاماً وما فوق أن يُرشحوا أنفسهم.

تُسلّم الطلبات شخصياً يوم الاثنين في تمام الساعة 11 للسيد دونكان روس في مكاتب العصبة الواقعة في 7 بوبس كورت، شارع فليت.

صحتُ بعد قراءة الإعلان لمرتين : لكن ما معنى كل هذا؟

تحرّك هولمز في كرسيه كما اعتاد أن يفعل عندما يكون مُستغرقاً بالتّفكير ثمّ قال: أرجو أن تخبرنا عن نفسك ياسيد ويلسون، عن عائلتك، عن تأثير هذا الإعلان عليك.

دكتور واطسون، لو سمحت، يُرجى تدوين اسم الصحيفة التي ورد فيها الإعلان، إضافةً إلى رقم العدد وتاريخه.

مورنينغ كرونيكل، 27 نيسان 1890. أي قبل شهرين. والآن تفضّل بالكلام يا سيد ويلسون.

قال جابيز ويلسون وهو يمسح جبينه: كما أخبرتُكَ ياسيِّد هولمز، أنا أملك محل رهنيات صغير في ميدان كوبروغ بالقرب من وسط المدينة.



إنَّـه دكَّانٌ صغـير يعمـل معـي فيـه اثنـان مـن المعاونـين، لكنّـي استغنيتُ عـن أحدهـم فيـما الآخـر وافق عـلى تقاضي نصـف الأجـر الآن بسـبب ضيـق الأحـوال، ولأنّـه يريـد أن يصبح خبيراً بالمهنة.

سأل هولمز: وما اسم ذلك الشّاب؟

- اسـمه فينسـنت سـبولدينغ. يمكنه أن يتحسّن في العمل كثيراً ويجنـي ضعـف ما أدفعه لـه حاليـاً، لكنّـه راضٍ بحاله، لذلك أبقيته على حاله.

- لا شـك أنّ معاونـك هـذا ممتـاز، لكنّـه غريـب مثل الإعلان الذي جلبته لنا.

- لكن لديه بعض السّلبيات.

- إلا أنّه ما زال يعمل لديك حتّى الآن، أليس كذلك؟

- نعـم يا سـيدي، هـو إضافـة إلى فتاة في الرابعـة عشر من عمرها.

إنّها تتولّى تدبير الأمور المنزلية والطّبخ وما إلى ذلك.

هـذا كل مـا لـدي في منـزلي، لأنّي أرمـل ولم يكـن لدي في

يوم من الأيام أسرة.

لقد وصلني هذا الإعلان إلى مكتبي قبل ثمانية أسابيع، وقد حمله لي معاوني قائلاً: كنت أتمنّى لو أنّي خلقت وشعر رأسي أحمر يا سيد ويلسون.

فسألته: لماذا؟

أتساءل لماذا؟ هناك شاغر متوفر في عصبة ذوي الشعر الأحمر، وهذا يعتبر ثروة بحد ذاته لأي شخص يملأ الشّاغر. أعتقد أنّ المرشحين قلّة مقارنةً بعدد الشَّواغر.

والواقع يا سيد هولمز، أنا رجل لا أخرج من منزلي كثيراً، وليس لدي علاقات اجتماعيّة كثيرة كما أنّ عملي يأتي إلي ولا أذهب إليه.

حرَّك هولمز عيناه بانتباه وقال: ألم تسمع قبل هذا الإعلان بعصبة ذوي الشعر الأحمر أبداً.

- لا.

- غريب. مع أنّك مؤهّل بجدارة لتكون أحد أعضائها.



- أريد أن أصدِقكما القول بأنّ أكثر ما لفت انتباهي وجعلت ذهني يتركّز على الإعلان هو تراجع أعمالي خلال السَّنوات القليلة الماضية.

لذلك اعتقدتُ أنَّه لن يضرنِي جني بعض مئات إضافية.

عندها سألته: لكن ما لا شك فيه أنّ ملايين الأشخاص سيتقدَّمون لملء الشّاغر المعلن عنه.

أجاب: ليس هناك مثل هذا الرقم، لأنّ التّرشيح محصور بأبناء لندن البالغين.

لاشك أنّكما لاحظتما لون شعري المميّز.

لقد كنت أملك فرصة ممتازة للفوز بالشّاغر.

بما أنّ فينسنت بولدينغ مطّلع على الأمر، طلبت منه إقفال المحل ومرافقتي لأجرِّب حظي بهذه المسألة.

عندما وصلت هناك رأيت مشهداً لن يتكرّر أبداً ياسيد هولمز! . .

لقد ازدحم وسط المدينة بأصحاب الشعر الأحمر الذين

تدفقوا إلى المكان من كل أرجاء المدينة استجابةً للإعلان.

لقد اكتظ شارع فليت بأصحاب الرؤوس ذات الشعر الأحمر من كل تدرجات اللون الأحمر، اللّيموني، البرتقالي، القرميدي، الطيني لكن لم يكن يوجد إلا قلّة قليلة من أصحاب الشعر الأحمر النّاري الحقيقي.

لقد كانت السلالم المؤدية للمكتب مليئة بالنّاس الصاعدين إليه، وكلهم أمل فيما المغادرين منه يملأ عيونهم اليأس والحسرة على ضياع الفرصة.

المهم تمكّنا من شق طريقنا وسط الازدحام الشديد إلى أن وصلنا بعد فترة إلى المكتب.

قاطع هولمز عميله مع توقف الأخير لبرهةٍ من أجل تذكُّر تفاصيل ما حدث معه بدقة. وقال هولمز: يا لها من تجربةٍ مثيرةٍ للاهتمام.

- عندما دخلنا، كان المكتب خالياً من أي شيء إلا كرسيين خشبيين وطاولة من خشب الصنوبر، جلس خلفها رجلٌ صغير ذو رأس لون شعره أشد احمراراً من لون شعري. وعندما حان دورنا، أبدى الرجل اهتماماً بي

أكثر من غيري.

فنهض وأغلق باب المكتب بعد بقائنا لوحدنا ليتحدّث معنا على انفراد كما بدا لي.

فقال معاوني له: أقدِّم لك السيد جابيز ويلسون. إنّه يريد التّرشح لعضوية العصبة.

أجاب الرجل: إنه أفضل مرشح! إنه يطابق كل الشروط المطلوبة. لم أر ما يشبه هذا منذ وقت طويل جداً.

تراجع إلى الخلف قليلاً وراح يتأمّل شعري لدرجة شعرت معها بالخجل، ثمّ تقدّم فجأةً وشدّ على يدي مُصافحاً ومُهنّئاً بحرارة نجاحي بالانضمام إلى العصبة.

ثمّ أمسك شعري بيديه وأخذ يشده بقوةٍ لدرجة أني صرخت من الألم.

بعد ذلك توجّه إلى النّافذة وصاح في الجمهور المكتظ خارجاً بأنّ الشاغر لم يعد متوفراً، فتعالت صرخات الغضب والاستهجان وسرعان ما تفرّق الحشد الكبير، ولم يبقَ من الرؤوس الحمراء سوى رأسي ورأس المدير في المكتب.



قام المدير بتقديم نفسه لي وقال: أُدعى السيد دونكان روس وأنا أحد المستفيدين من الصندوق الذي تركه لنا ذلك المحُسن الخيّر.

هل أنت متزوج يا سيد ويلسون؟

هل لديك أسرة؟

أجبت بالنّفي ليُصاب بخيبة أمل كما بدا على وجهه، وقال: يا إلهي!

إنّ الهدف الرّئيسي من الصندوق هو وجود عدد أكبر من أصحاب الشعر الأحمر، ويؤسفني أنّكَ لا زلت أعزب.

لقد أقلقني هذا الكلام يا سيد هولمز، واعتقدتُ أنّي فقدتُ فرصة ربح الشّاغر ، لكنّه قبل ترشيحي للشّاغر للتو.

ثم سألني: متى يمكنك مباشرة العمل؟

فأجبته: كم تبلغ ساعات الدّوام؟

قال: من العاشرة حتّى الثانية.

– حسناً، وماذا عن الأجر؟

– أربع باوندات في الأسبوع.

– وما هي طبيعة العمل؟

– عملٌ شكلي بحت بدون جهد عضلي. عليك ملازمة المكتب أو البناء طوال فترة الدّوام.

– لكن ماذا سأعمل؟

– ستقوم بنسخ الموسوعة البريطانية لاسيما المجلد الأول منها بأسرع وقت. عليك أن تحضِّر بنفسكَ الأقلام والحبر والورق، فيما نؤمِّن لك نحن الطّاولة والكرسي. هل يمكنك مباشرة العمل غداً؟

أجبت: طبعاً.

– إذن، إلى اللِّقاء غداً يا سيد ويلسون.

بعد المغادرة أمضيتُ كل اليوم في التّفكير بالأمر، إلى أن بدأت أفكِّر بعدم المضي قدماً بالموضوع، لكن فينسينت سبولدينغ بذل كل ما بوسعه لإقناعي بجدوى وفائدة الموضوع، كما أنَّه عمل على التَّخفيف عني بالمرح قليلاً.

وقرّرت رغم كل الغرائب التي صادفتها يوم أمس أن

أجرِّب حظي وألتحق بالعمل الجديد.

كانت مفاجأتي كبيرة ومفرحة عندما وجدتُ في اليوم التّالي أنّ كل شيء على ما يرام، فقد كان هناك طاولة مخصّصة لي وجاهزة، كما حضر السّيد دونكان روس ليتأكّد من سير العمل بانتظام.

وقد أشار علي أن أبدأ عملي في التّسجيل من حرف الألف ثمّ غادر. وكان يعود بين الفينة والأخرى ليتأكَّد أنَّ كل شيء على ما يرام.

واستمرّ الأمر على هذا المنوال يوماً بعد الآخر وأسبوعاً يليه أسبوع، حيث كنت أصل في تمام العاشرة وأغادر في الثّانية بعد الظهر.

وبمرور الوقت أصبحت زيارات السّيد روس التَّفقدية تتقلص تدريجياً إلى أن انقطعت زيارته لي نهائياً. ورغم ذلك لم أكن لأتجرّأ على التَّغيب عن عملي ولو للحظة.

وبعد ثمانية أسابيع كنتُ قد كتبت خلالها عن رؤساء دور العبادة ورماية النّبال والدروع والهندسة.. إلخ.

لكن فجأة انهار كل شيء... كل شيء؟!



- نعم يا سيدي...

فصباح هذا اليوم تحديداً، ذهبت إلى عملي كالمعتاد في العاشرة لأجد الباب مقفلاً، وقد تمّ تعليق بطاقة صغيرة عليه كُتب عليها.

وأخرج بطاقة صغيرة الحجم من جيبه كُتب عليها:

لقد تمَّ حلَّ عصبة ذوي الرؤوس الحمراء 9 تشرين الأول 1890.

قرأتُ أنا وشارلوك العبارة المقتضبة بتمعنٍ لننفجر في الضَّحك معاً.

عندها صاح عميلنا: علام تضحكان؟ إذا كنتما لا تجيدان سوى الضحك، فالأجدى أن أقصد مكان آخر بهدف المساعدة.

ربت هولمز على كتف الرجل وأجابه مُطمئناً بعد أن أعاده إلى كرسيه الذي نهض عنه: لا، أبداً. لن أدع قضيتك تخرج من بين يدي مهما كان الثّمن.

لكن هناك شيء مضحكٌ فيها. هل يمكنك أن تخبرني ماذا فعلتَ حين وجدت البطاقة على الباب؟

- لقد صُعقت يا سيدي، ولم أعرف ماذا سأفعل.

بعد ذلك توجَّهتُ إلى مالك البناء الذي يقيم في الطّابق الأرضي وسألته ماذا حل بعصبة ذوي الشعر الأحمر. فقال لي أنّه لم يسمع بهذه العصبة من قبل.

ثمّ سألته عن السّيد دونكان روس. فأجاب: آه، هل تعني ذاك الرجل الذي يُدعى ويليام موريس. إنّه شخصٌ يعيش على الصّدقات، وكان يستأجر الغرفة لدي ريثما يجهِّز مكان عمله الجديد. لقد رحل يوم أمس.

سألته: إلى أين رحل؟

فقال: إلى مقر عمله الجديد.

لقد أعطاني العنوان...

إنّه 17 شارع الملك إدوارد بالقرب من كنيسة القديس بولس.

وعندما وصلت إلى العنوان، لم أجد أحداً قد سمع بالسيد ويليام موريس أو السيد دونكان روس.

فسأل هولمز مستفسراً: وماذا فعلت عندها؟

- لم أكـن راغبـاً بفقدان مثل هذه الوظيفـة الرّائعة وقرّرت أن أبـذل ما بوسـعي للحفـاظ عليها. لذلك قصدتُـك بعد أن سمعت عن براعتك ونصائحك القيّمة.

أجاب هولمز: لقد قمتَ بالعمل الصّائب.

إنّ قضيتـك مثـيرةٌ جـدّاً للاهتمام وسـوف أكـون مسروراً بالعمل عليها.

أسـتطيع أن أسـتنتج أنّ قضيتـك تحـوي مسـائل أخطر مما يبدو ظاهراً، وربما تكون سبباً أو مقدِّمة لأشياء خطيرة.

فـردّ السـيد جابيـز ويلسـون قائـلاً: حقـاً خطـيرة؟! ألا يكفي أنّي خسرت أربع باوندات في الأسبوع؟

قـال هولمـز: بخصوصـك أنـت، أعتقـد أنّ ثروتـك قـد زادت جـوالي 30 باونداً، إضافـةً إلى حصولك على معلومات قيِّمة نتيجة العمل على نسخ وتدوين الموسوعة البريطانيّة.

في هذه الحالة أنت لم تخسر شيئاً، أليس كذلك؟

- هـذا صحيـح يـا سـيِّدي، لكنّـي أرغـب بمعرفـة مـاذا حدث للعصبة؟

ومن هم فعلاً؟

وما الهدف من هذه المزحة، إذا كانت كذلك؟ إنّها مزحة كلفتهم اثنين وثلاثين باونداً!.

- سنحاول إلقاء الضّوء على كل هذا الغموض، لكنّي دعني أسألك أولاً سؤالاً أو سؤالين يا سيد ويلسون.

منذ متى تعرف ذلك المعاون الذي نبّهك إلى الإعلان؟

- قبل شهر من بدء الموضوع.

- وكيف تعرّفتَ به؟

- وضعتُ إعلاناً وتعرّفت عليه بعد أن قرأه وجاء ليحصل على العمل.

- هل كان المرشّح الوحيد؟

- لا، كان هناك حوالي عشرة أشخاص غيره.

- لماذا وقع اختيارك عليه هو تحديداً؟

- لأنّه كان مستعداً لبدء العمل والقبول بالأجر الزّهيد الذي كنتُ أعرضه.

- هل يمكنك أن تصف لي فينسنت سبولدينغ هذا؟

- إنّـه رجـلٌ قصـير القامـة، قـوي البنيـة، أصلـع وهنـاك بقعة ما على رأسه الأصلع.

عـدّلَ هولمز جلسـته عـلى كرسـيه وأخذت الحماسـة تدب في أوصالـه وهـو يقـول: هـل لاحظـتَ أنّ أذنيـه كانـت مثقوبتين بحيث يمكنه وضع أقراط فيهما؟

- نعـم يـا سـيِّدي. قـال لي أنَّ الغجر فعلوا ذلـك له عندما كان صغيراً.

أجـاب هولمـز وهـو يفكّـر بعمـق: حسـناً، هـل مـا زال يعمل لديك حتّى الآن؟

- طبعاً. لقد تركته في المحل قبل أن آتي إلى هنا للتّو.

- وهل يهتم بأعمالك أثناء غيابك؟

- نعم، إنّه يؤدِّي عملاً جيِّداً.

- شـكراً يـا سـيد ويلسـون. أتمنّـى أن أتوصّـل إلى حـل يوضِّح كل شيء متعلِّقٌ بهذه القضيّة بعد يومٍ أو اثنين.

اليـوم هـو السـبت، وربـما أكـون قـد توصَّلـتُ إلى شيءٍ مفيد بحلول الاثنين.

وبعد أن غادر ضيفنا، سألني هولمز: إذن يا واطسون، ما رأيك بكل ما سمعت؟

أجبتُ بصراحةٍ: لا شيء، لا يوجد لدي رأي بعد في الأمر. إنَّ القضيّة بالنِّسبة لي غامضةً تماماً.

فعلّق هولمز قائلاً: إنّ أغرب الأمور هي أقلّها غموضاً في معظم الأحيان.

فسألته: وما الذي ستفعله حيال هذه القضية؟

أجاب: أنوي أن أدخِّن وأتمنّى أن لا تقطع سلسلة أفكاري بحديثك قبل مرور خمسين دقيقة اعتباراً من الآن.

ثمّ تقوقع على كرسيه وأغمض عينيه وهو يُدخِّن تبغ غليونه. وسرعان ما اكتشفت أنّه قد نام، وشعرتُ أنا نفسي بالنُّعاس.

فجأةً انتفض هولمز واقفاً وكأنّه قرَّر تنفيذ قرار مهم اتّخذه للتو. وقال: هل ترافقني إلى حفل يقام في قاعة القديس جايمس بعد ظهر اليوم.

أتعتقد أنَّ مرضاك يمكن أن ينتظروا لبضع ساعات أخرى؟



- لست مشغولاً اليوم والعمل لا يستحوذ على كل وقتي.

- ضع القبعة على رأسك إذن وهيا بنا.

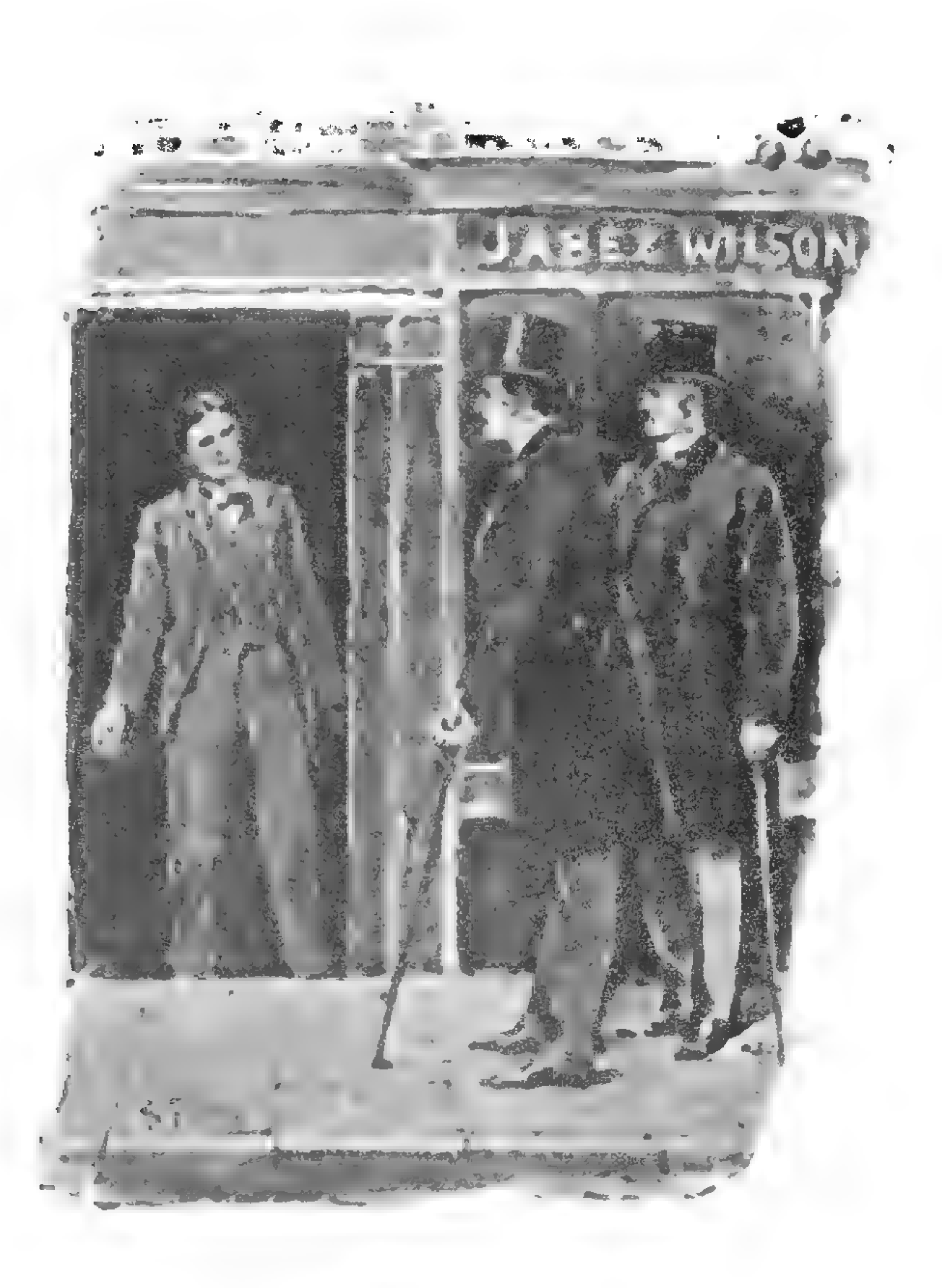
بعد حديثنا بقليل وصلنا إلى ميدان ساكس كوبورغ، حيث جرت أحداث القصة الغريبة التي سمعناها هذا الصباح.

ولمحنا لوحةً بُنيّةَ اللّون مكتوبٌ عليها بأحرف بيضاء اسم جابيز ويلسون عند زاوية أحد المنازل. كانت تُشير إلى المكان الذي كان يعمل به صديقنا ذي الشعر الأحمر.

توقّف هولمز أمام اللَّوحة وتأمّلها جيِّداً، ثمَّ أدار رأسه وتأمَّل الشارع ليعود بنظره إلى مقر عمل ويلسون مرةً أخرى.

ثمّ سار ببطء إلى نهاية الشارع، وعاد إلى مكانه أمام محل عمل ويلسون وهو ينظر إلى المنازل.

ثمَّ تقدَّم من مكان عمل المسترهن أو صاحب مكتب الرَّهن وقرع الجرس، ففتح الباب على الفور شاب ودعاه إلى الدخول.


JABEZ WILSON

- أشكرك، لكنّي أُريد أن أعرف من أين يمكن أن أصل إلى شارع ستراند.

أجاب معاون ويلسون الذي فتح الباب: ستصل إليه إذا انعطفتَ يميناً عند المفرق الثّالث ثم الرّابع يساراً. وأقفل الباب.

وعندما عاد هولمز قال لي: إنّه شابٌ ذكي. اعتقد أنّه رابع أذكى رجل في لندن إن لم يكن الثّالث.

أجبتُ: من الواضح أنّ هناك علاقة غامضة بين معاون السيد ويلسون وعصبة ذوي الشّعر الأحمر. أنا واثق أنّك أتيتَ عمداً إلى هنا كي تراه.

- لم آت لأراه هو.

- ماذا إذن؟

- أتيت لرؤية ركبَتي بنطاله.

هيا يا عزيزي واطسون... لقد حان وقت المراقبة وليس الكلام.

إنّنا جاسوسان على أرض العدو الآن.

لدينـا بعـض المعلومـات عـن ميـدان سـاكس كوبـروغ، دعنا نستكشف ممراته السريّة ونعرف خفاياه.

انعطفنـا عنـد الزّاويـة في ميدان سـاكس كوبـروغ فدخلنا شارع يختلف اختلافاً جذرياً عن الشارع الذي كنا فيه.

كان شـارعاً رئيسـيّاً تتفرَّع منه كل الشّـوارع المؤدية إلى إلى وسط المدينة شمالاً وغرباً.

كان الشّـارع مكتظـاً بكثـير مـن النّـاس بسـبب الحركـة التِّجاريـة ذهابـاً وإياباً، وبدت قارعة الطّريق سـوداء متّسـخة لكثرة المشاة عليها.

قـال هولمز وهو يقـف عند الزَّاويـة متأمِّلاً الشـارع: دعني أرى جيداً.

أريـد أن أحفـظ تسلسـل المنـازل هنـا. إحـدى هوايـاتي حفظ خريطة لندن عن ظهر قلب.

بعـد ذلك ذهبنـا إلى الحفـل في القديس جيمـس، وبعد أن غادرنـا الحفـل قـال: لاشـك أنَّـك تـود العـودة إلى البيـت يادكتور.



- نعم، أود العودة إلى البيت الآن.

- أنا أيضاً سأكون مشغولاً في السّاعات القادمة، فقضية ميدان كوبروغ هذه تبدو خطيرة.

- وكيف عرفتَ ذلك؟

- هناك من يجهز لارتكاب جريمة فظيعة. وكل شيء يدل على أنّنا سنصل في الوقت المناسب لإفشالها، لكن ولأنَّ اليوم هو السبت أي عطلة، فإنّ الأمور معقَّدة قليلاً.

سوف أحتاج إلى مساعدتك هذه اللّيلة.

- متى؟

- في العاشرة.

- سأكون في تمام العاشرة في شارع بيكر.

- ممتاز... أرجو أن تتوخى الحذر يا دكتور، فقد نواجه خطراً ليس بالجَدي لكنَّه قد يَستدعي أن يكون معك مسدسك الحربي الصَّغير في جيبك عندما تأتي.

بعد ذلك رفع يده مُحيياً واختفى في ازدحام النَّاس بالشّارع.

وانتابني شعورٌ بالإحباط بعد أن تركني هولمز لأنّي شعرت كم أنا بعيد عن مستوى ذكائه.

ففي هذه القضية، سمعتُ ورأيتُ كل ما سمعه ورآه، ومع ذلك تمكّن هو من معرفة حقيقة ما حدث مع ويلسون، وما سيحدث، فيما أنا لا أدري ما حدث أو ماسيحدث.

وبدأت أتساءل عن طبيعة المهمة اللّيلية وضرورة حمل السلاح أثناءها. وأين سنذهب هذه اللّيلة ولماذا؟

لقد أشار هولمز إلى أنّ ذلك المعاون صاحب الوجه اللّطيف شخصٌ رائع، رجلٌ قادرٌ على لعب دور ببراعة في لعبة معقَّدة.

بعد ذلك أشحتُ بيدي لأنّي لم أنجح بتفسير كل هذا، لذلك قرّرت انتظار اللّيلة علّها تُعطيني الجواب الشّافي لكل أسئلتي.

غادرتُ منزلي في التّاسعة والربع، وتجاوزت الحديقة ثم شارع أوكسفورد، حتّى وصلتُ إلى شارع بيكر حيث يُقيم هولمز.

دخلتُ الغرفة فوجدتُ هولمز يتحدَّث مع شخصين، عرفتُ أحدهما وهو رجلُ الشرطة بيتر جونز، أمّا الثّاني فكان رجلٌ يتميَّزُ بوجهٍ طويلٍ وحزين.

قال هولمز عندما رآني أدخل: جيّد، أصبحنا جميعاً هنا! أعتقد أنّك تعرف السيد جونز من اسكوتلانديارد ياواطسون، أليس كذلك؟

كما أُعرِّفُك على ميري ويذر الذي سيشترك معنا في هذه القضيّة اللّيلة.

عندما انطلقنا كان شارلوك صامتاً حيث جلس في المقعد الخلفي للعربة يُردِّد ألحان أغنيةٍ كُنا قد سمعناها بعد الظهر.

عبرنا شوارع وحارات كثيرة إلى أن وصلنا أخيراً إلى شارع فارنغدون.

بعد ذلك قال رفيقي: نكاد نصل.

إنّ ميري ويذر هذا مدير مصرف، وهو مهتم شخصيّاً بهذه القضية. أعتقد أنّ وجود جونز سيكون ضروريّاً ومفيداً أيضاً. وهم في انتظارنا.

كنا قد وصلنا إلى التّقاطع الذي كنّا عنده صباحاً، فتفرّقت عرباتنا وتبعنا إرشادات شارلوك هولمز، وسرنا في ممرٍ ضيّقٍ، ثمّ انفتح بابٌ جانبي أمامنا.

ورأينا هناك ممرّاً صغيراً سلكناه فقادنا إلى بوّابةٍ حديديّةٍ ضخمةٍ مفتوحة تؤدّي إلى بوابةٍ أخرى، لكنّها رائعة الجمال والهندسة.

توقّف السيد ميري ويذر ليُضيءَ قنديلاً ثمّ قادنا عبر ممرٍ يعبقُ برائحة رطوبة التُّراب، بعد اجتياز بابٍ ثالثٍ وصولاً إلى قبو أو سردابٍ كبيرٍ مُلء على جانبيه بالعلب الكرتونية والصّناديق.

قال هولمز بصرامةٍ موجّهاً حديثه إلى السَّيد ميري ويذر: أتمنّى أن تبقى هادئاً وألا تتدخّل في الموضوع.

وافق السّيد ميري ويذر على مضض، بينما ركع هولمز على الأرض وهو يقول: أمامنا ساعة على الأقل لأنّهم لن يفعلوا أي شيء أو يُقدِموا على أي خطوة قبل أن يتأكّدوا أنَّ السيد ويلسون يغط في نومٍ عميق في سريره.

بعد ذلك لن يُضيّعوا دقيقة واحدة لأنَّهم بحاجةٍ إلى

كل ثانيةٍ ليتمكّنوا من الفرار بعد تنفيذ ما يريدونه.

نحن الآن كما ترى يا د. واطسون في وسط المدينة ضمن قبو إحدى أبرز المصارف في لندن، والسيد ميري ويذر واحدٌ من أكبر المدراء، وسيشرح لكَ سبب اهتمام أخطر المجرمين في لندن بهذا القبو.

همس المدير ميري ويذر شارحاً الأمر: إنّه احتياطي الذَّهب الفرنسي الذي نملكه.

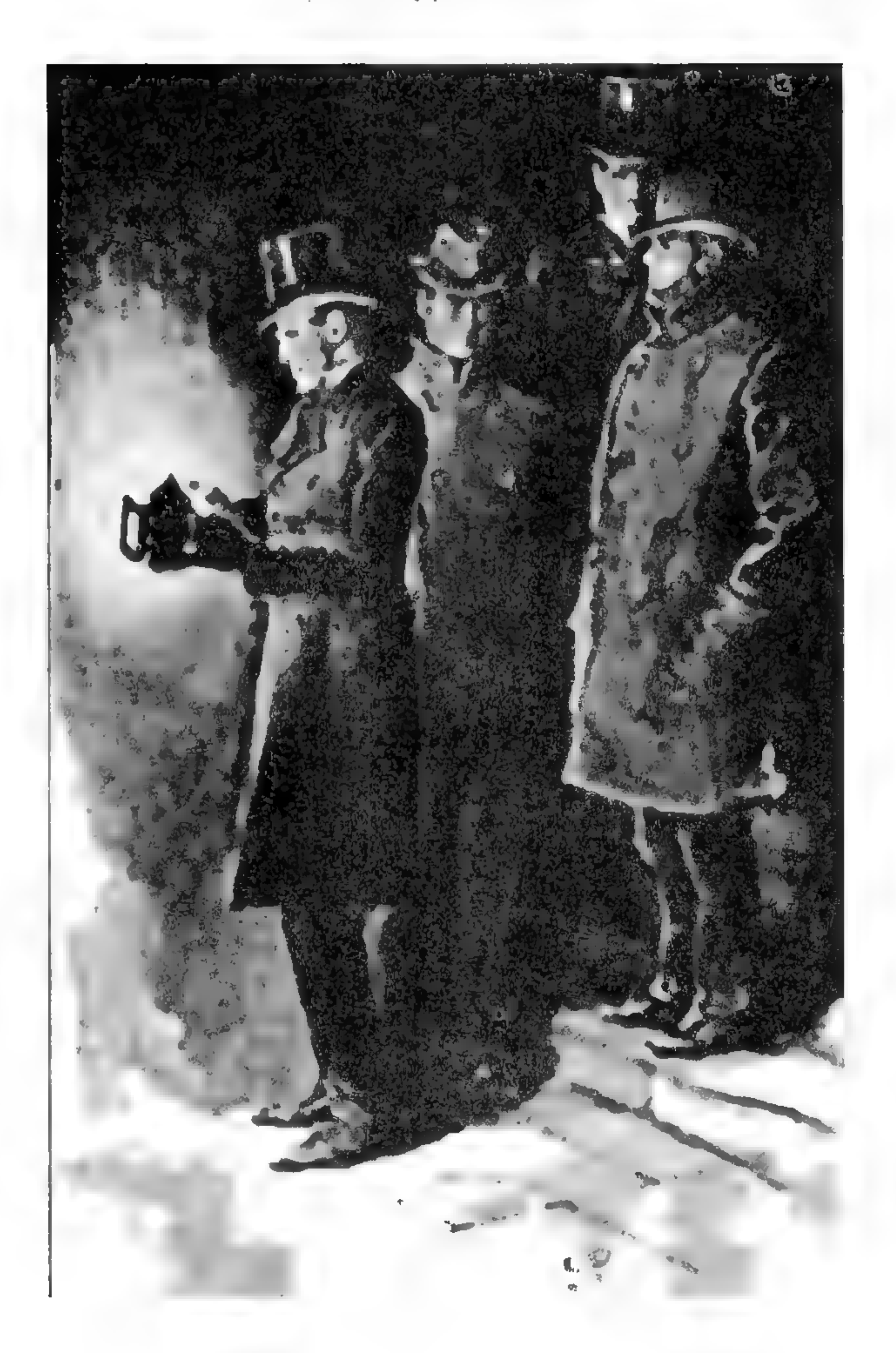
لقد تلقينا عدّة تحذيرات وإنذارات حول إمكانية تعرضنا للسّرقة.

- ذهبكم الفرنسي؟!

- نعم.

لقد قمنا بزيادة احتياطنا من الذَّهب مؤخَّراً واقترضنا من أجل ذلك ثلاثين ألف قطعةٍ ذهبيَّةٍ من المصرف المركزي الفرنسي.

ومن المعروف أنَّه لم يُسعفنا الوقت لتفريغ الذّهب من الصَّناديق فبقيت في القبو.



قـال هولمـز: لقـد حان الوقـت لنضع خطّـةً لنـا. أتوقّع أن تنطلق الأحداث وتتصاعد بشكلٍ كبير بغضون ساعة.

علينـا حتـى ذلـك الحـين يـا سـيد مـيري ويـذر أن نُطفئ ضوء هذا القنديل.

- ونجلس في الظّلام؟

- أخشى أنّه لا خيار لدينا سوى هذا...

لقـد بلغـتْ مخطّطـات خصومنـا مرحلـةً متقدِّمة جـداً لا تسمح لنا باستخدام الضوء، فيما نحن مقبلون عليه.

علينـا أن نتمركـز في أماكـن محـدّدة، فهـم رجال شـجعان وأقويـاء، حتـى لـو كنـا في موقـع القـوة كوننـا مـع الحـق. لكنّهم قد يؤذونا إذا لم نكن حذرين.

أنا سأقف خلف هذا الصندوق.

أمّا أنت فخلف هذا.

وحالمـا أُسـلِّط الضَّـوء عليهم، هاجموهـم بقـوّة ولا تتردَّد يـا واطسـون بإطـلاق النّـار إذا هـم بإطـلاق النـار عليـك أو علينا.

أخفى هولمز نور القنديل، فغرقنا في ظلامٍ دامس لم أشهد مثله في حياتي.

بعد ذلك همس هولمز: ليس هناك سوى مخرج واحد عبر المنزل إلى ميدان ساكس كوبروغ، وعليهم أن يسلكوه بشكلٍ إجباري.

أتمنّى أن تكون قد نفَّذتَ ما طلبْتُهُ منك ياجونز.

هل فعلت؟

- نعم، لقد وضعتُ مفتِّشاً وضابطين أمام المدخل.

- وهكذا نكون قد أغلقنا كل المنافذ عليهم. لم يعد أمامنا سوى التزام الصّمت فيما ننتظرهم.

مر الوقت بطيئاً جدّاً في الانتظار، وأدركتُ لاحقاً أنّه لم يمضِ سوى ساعة وربع، رغم إحساسي بمرور وقت طويل، وأنّ اللّيل قد انتهى وبدأ الفجر يبزغ.

كان جسمي يؤلمني من الانتظار طويلاً في نفس المكان دون راحة ولأنّ أعصابي كانت مشدودة ومتنبه إلى أقصى الحدود لدرجة كنت أسمع صوت تنفُّس زملائي. فجأة لمحتْ عيناي بريق ضوء.

لم يكـن في البدايـة سـوى بريـق متوهِّـج انعكـس ضـوؤه عـلى الأرض الحجريّـة، ثـمَّ اسـتطال إلى أن أصبـح خطّـاً أصفـر. بعـد ذلك انفتحت فجـوة في الجدار، وظهرت وسـط هالـة النـور يدٌ بيضاء تشـبه يد المرأة، ثم ما لبثـت أن اختفت بالسرعـة التي ظهـرت فيهـا، وعـادت الظلمة لتلـف المكان، باسـتثناء البريـق المتوهِّـج الـذي يكشـف الشّرخ بـين أحجار الحائط.

إلا أنّ اليـد لم تختـفِ كثيراً، إذ سرعان ما بـرز وجه صبياني بشكلٍ واضح تماماً.

وقـف بجانـب الفتحـة وتبعـه زميـلٌ آخر رشـيق وقصير القامة مثله.

كان وجهه شاحباً ولون شعره أحمر!

همس بصوتٍ خافت: إنَّ كل شيء على ما يرام.

هل جلبتَ أداة الحفر والأكياس معك؟

حسـناً هيـا يـا سـكوت اقفـز، وأنـت كذلـك يـا أركـي وسأتولّى أنا الباقي.



عندها قفز هولمز من مكانه وأمسك أحد المتسلِّلين من عنقه، فيما قفز الآخر فارّاً عبر الفجوة.

وفجأة لمع ضوء ماسورة مُسدس مُشهّر، لكنّ هولمز سارع إلى الإمساك بمقبض الرّجل الذي يحمله، وأوقع المسدّس على الأرض الحجرية.

وقال هولمز بصوتٍ لطيف ساخر: لا جدوى من المقاومة يا جون كلاي.

لقد قُضي عليك...

أجاب جون ببرود وسخرية مماثلة: هذا صحيح. أعتقد أنّ زميلي بخير.

قال هولمز: هناك ثلاثة رجال بانتظاره عند الباب.

- حقاً!

يبدو لي أنّك أحسنتَ تنظيم الأمر على أحسن وجه. أهنئك على ذلك.

- وأنا أيضاً. ففكرتُك حول أصحاب الشعر الأحمر، فكرة ممتازة ومبتكرة وفعّالة جدّاً.

وأضاف: سوف ترى زميلك مجدّداً، لكن عليَّ أن أُقيِّدُك أولاً.

وقال سجيننا فيما كان هولمز يطبق بالأصفاد على معصميه: أرجوك!

لا تلمسني بيديك القذرتين.

لعلَّك تعرف أنّ دماً ملكيّاً يسري في عروقي.

وأرجو أن تخاطبني باستخدام كلمة (سيِّدي) وتستخدم عبارة (من فضلك) عندما تخاطبني.

أجاب هولمز متعجِّباً بعد أن ضحكة نصف ضحكة مكبوتة: حسناً، هلا تفضلت يا سيِّدي بارتقاء السَّلالم كي نجد عربة تقل سموك إلى السجن؟

أجاب جونز كلاي بهدوء: هكذا أفضل.

وفيما كنا نتبعهم إلى القبو، قال السيد ميري ويذر: في الواقع يا سيد هولمز، لا أعرف كيف يمكن للمصرف أن يشكرك أو يكافئك.

لا شك أنّك اكتشفت وأحبطتَ بشكلٍ رائعٍ واحدةً

من أخطر محاولات السطو التي عرفتها في حياتي.

أجاب هولمز: هناك حساب بيني وبين السّيد جون كلاي وكان يجب أن أُصفِّي ذلك الحساب.

لقد دفعتُ مقابل بعض الأمور مبلغاً طفيفاً من المال أتوقّع أن يقوم المصرف بتسديده.

وباستثناء ذلك، فإنَّ مكافأتي الكبرى هي خوضي لهذه التجربة الفريدة لعدة أسباب، أهمها حصولي على معلومات ثمينة عن عصبة أو زمرة ذوي الشّعر الأحمر.

وبعد مضي فترة على انتهاء الموضوع، جلستُ مع هولمز نتناول الفطور في مسكنه في شارع بيكر، فقال لي شارحاً ماحدث: كان واضحاً يا واطسون منذ البداية أنَّ الهدف الوحيد المعقول لقصة الإعلان الخدعة حول أصحاب الشعر الأحمر لم يكن يهدف سوى إلى إبعاد السيِّد ويلسون المرابي عن مكان عمله لفترةٍ محدّدة يوميّاً، وذلك عبر إلهائه بنسخ الموسوعة البريطانية.

كانت طريقة غريبة لكنّها كانت خطّة ممتازة لإدارة الأمر.

ولا شك أنّ عبقرية جونز كلاي هي التي أنتجت هذه الفكرة نظراً إلى لون شعر ويلسون الذي كان قد وظّفه عنده كمعاون قَبِل بالأجر الزّهيد الذي كان يعرضه.

أمّا قصة الأربع باوندات فقد كانت الطعم لاجتذاب ويلسون الطّماع، لكن من يمكن أن يقارن أربع باوندات بآلاف التي سيجنيانها لاحقاً جونز كلاي وشريكه الآخر؟!

وحالما سمعت أنّ المعاون قَبِل الوظيفة لدى ويلسون بنصف الأجر، أدركتُ أنّ لديه سبباً قوياً وحافزاً يدفعه لذلك وهو ضبط الوضع أمنياً.

- لكن كيف عرفت ما هو الحافز تحديداً؟

- لو كان بالمنزل امرأة لظننتُ أنَّ القضيّة من نوعٍ آخر. لكن الحال لم يكن كذلك.

والرَّجل، أي ويلسون، يدير عملاً متواضعاً ولا يوجد في المنزل ما يُغري بالسرقة ، كما لا يوجد فيه شيء يستحق المغامرة من أجل دخوله والبقاء فيه.

إذن لا بد أنّ ما يبغيه المعاون كان شيئاً خارج المنزل،

لكنّه متعلّق به بشكلٍ ما...

فماذا كان يا تُرى؟

ولم يخطر ببالي سوى شيء واحد وهو أنّه أي المعاون سيستخدم منزل ويلسون ليحفر فيه نفقاً يؤدي إلى بناء آخر قريب.

وعندما قرعتُ الباب لأراه، رأيت ما أردت التّأكد منه وهو أثر التراب وأعمال الحفر على ركبتي بنطاله.

لقد كان يحفر نفقاً ويجثو على ركبتيه فيما يحفر أي يحفر في الأرض.

لا شك أنّك لاحظتَ مثلي كما كانتا مجعّدتين ومتّسختين في إشارةٍ واضحةٍ إلى طول فترة الحفر.

ولم يبقَ سوى أن أعرف إلى أين سيؤدي النفق الذي يحفره..

فاتّجهتُ إلى زاوية الشّارع أستطلع ما حولها، وإذ تقع عيناي على وسط المدينة ومصرف سابورين المتاخم لمقر عمل ويلسون ومعاونه القنوع!

عندها انكشف كل الغموض الذي يحيط بالمسألة.

سألته مستوضحاً: وكيف توقَّعتَ توقيت العملية؟

- إغلاق مقر العصبة كدليل على عدم أهمية وجود السيد جابيز ويلسون، وبعبارةٍ أخرى لقد انتهيا من حفر النَّفق.

إضافةً إلى أنَّ يوم السبت يناسبهما كأفضل توقيت لأنَّه يمنحهما يومين للفرار، كونه والأحد عطلة أسبوعية.

لكل هذه الأسباب مجتمعةً توقَّعتُ مجيئهما اللَّيلة لتنفيذ السَّرقة.

فقلتُ له وأنا مندهش بهذه العبقرية الفذّة: يا له من تحليل ممتاز.

إنّها سلسلة أحداث طويلة ومعقّدة، لكن تبدو كل حلقة فيها في مكانها الصّحيح تماماً.

أجاب: لقد أنقذَتْني هذه القضية من الملل الذي يُحاصرني.

- كما أبرزتْكَ كرجل خيرٍ يُقدِّم الخير ويحمي الجنس

البشري أيضاً.

هـزَّ كتفيـه بتواضـعٍ وأجاب: ربّـما كنـتُ ذا فائـدةٍ معيّنةٍ، فالإنسـان لا يسـاويه شيءٌ آخـر، إنّـما عمله هـو كل شيء على حد تعبير غوستاف فلوبير وجورج ساند.

• انتهى •